

سردية الثورة في رواية "على جبال الظهيرة" لمحمد ساري

The narrative of the revolution in the novel "On the Mountains of Dhahira" by Muhammad Sari

إبراهيم بوخالفة*

المركز الجامعي مرسلّي عبد الله بتيبازة

Boukhalfa.brahim@cu-tipaza.dz

تاريخ القبول: 2025-05-28

تاريخ الإرسال: 2024-11-13

ملخص:

لا تزال ثورة التحرير الكبرى مصدر إلهام للعديد من الروائيين الجزائريين، ومن أهمهم محمد ساري، وأهم الروايات تمثيلاً لسردية الثورة ورمزيتها في عالمنا المعاصر هي رواية "على جبال الظهيرة". في هذا العمل الإبداعي يقوم الروائي بتمثيل بعض أعمال المقاومة التي تعكس رفض أصحاب الأرض للاستعمار.

تعكس الرواية إلى جانب أفعال المقاومة مشاهد من معاناة الأهالي وما يكابدونه من مشقات الحياة اليومية. وتتركز الأحداث الروائية في قرية مناصر وأعالها، غرب تيبازة. هذه المنطقة التي يعتبرها المؤرخون قليلة المساهمة في الثورة نظراً لكونها معقلاً للمستوطنين الأوروبيين. وكانت الرسالة المشفرة من وراء هذه الرواية أنّ أرض الجزائر كلها ترفض الأقدام الأجنبية، وفي كلّ وقت وكلّ ظرف.

نسعى من خلال هذه الدراسة للكشف عما تمثّله الثورة من رمزية بالنسبة لجيل ما بعد الاستقلال ولكل حركات المقاومة في العالم المعاصر، وليس أقلها فلسطين المحتلة.

الكلمات المفتاحية: الثورة؛ المقاومة؛ الاستعمار؛ الأهالي؛ المعذبون في الأرض.

Abstract:

The Great Liberation Revolution is still a source of inspiration for many Algerian novelists, the most important of whom is Mohamed Sari. The most important novel representing the narrative of the revolution and its symbolism in our contemporary world is the novel "On the Mountains of Noon." In this creative work, the novelist

* المؤلف المراسل

represents some acts of resistance that reflect the landowners' rejection of colonialism.

In addition to the acts of resistance, the novel reflects scenes of the people's suffering and the hardships they endure in daily life. The narrative events focus on the village of Manasser and its upper reaches, west of Tipaza. This region is considered by historians to have little contribution to the revolution due to it being a stronghold for European settlers. The encrypted message behind this narrative was that the entire land of Algeria rejects foreign feet, at all times and in every circumstance.

Through this study, we seek to reveal the symbolism that the revolution represents for the post-independence generation and for all resistance movements in the contemporary world, not least occupied Palestine

Keywords: revolution; resistance; colonization; Parents; The tormentors on earth

مقدمة:

لا تزال الثورة الجزائرية الكبرى منتصف القرن الماضي تُلهم كبار الكتّاب الجزائريين والعرب، باعتبارها أهمّ ضربة تلقتها الامبريالية الأوروبية في كل تاريخها. لا يمكننا أن نفترض حالة استعمار بمعزل عن الحركة المضادة لها. إنّ كلّ استعمار يولّد بالضرورة مقاومة، تبرز من وجوده كممارسة سياسية وثقافية، وهيمنة اقتصادية. إنّ تاريخ الاستعمار الأوروبي الحديث هو تاريخ الثورات التحريرية الكبرى في كلّ المستعمرات التي توزعت على مساحات شاسعة من اليابسة. لقد أخبرنا إدوارد سعيد في "الاستشراق" أنّ أوروبا كانت تسيطر خلال النصف الأول من القرن العشرين على 100/85 من الأرض، وهي حقيقة كان بإمكانها أن تغيّر مجرى التاريخ العالمي لو استمرت هذه السيطرة، ولو مُنعت حركات التحرير من إنجاز إرساليتها التاريخية.

لقد كان الاستعمار بشكل عام أسوأ حادث في تاريخ الإنسانية حقاً، ليس فقط بالنسبة للمستعمرين، ولكن أيضاً للمستعمرين. فمأساة المستعمر والمستعمر لا يمكن الفصل بينهما على الإطلاق، إذ أنّ الدماء كثيراً ما تختلط في ساحات المعارك، والجراح عميقة في نفوس الطرفين، والكرهية هي السمة البارزة في العلاقات بين الشعوب المتقاتلة، بغض النظر عن المعتدي والمعتدى عليه. إنّ المعاناة التي يكابدها الأهالي في المستعمرات، ليست بمنأى عن جنود المحتل. تكشف وقائع الامبراطورية الغربية، أنّ الاستبداد من قبل الحكومات الأوروبية التي تصنع النظام الدولي، يُسلط على الأهالي بالدرجة نفسها التي يُسلط بها على عساكر المحتل. ونحن نرى اليوم أنّ الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي

يتقاسمان اليوم الرعب نفسه، رغم اختلال موازين القوى. بل إنَّ اليهود أشدَّ رعباً وأكثر حرصاً على الحياة، وأكثر حاجة إلى السلم والأمن من الفلسطينيين. فهؤلاء هم أصحاب القضية العادلة وأصحاب الأرض، ويدرك الإسرائيليون المرحلون من مختلف بقاع الأرض، أنهم العنصر الأجنبي، والمحتل، وأنَّ مآلهم الحتمي هو الزوال، بالطريقة نفسها التي زال بها استعمار أوروبا للعرب والأفارقة. فالاستعمار ليس من عادته أن يعمر طويلاً.

بدل أن يتخلَّى الغرب عن الرغبة في السيطرة على آخره، فضّل التمسك بمشروعه الاستعماري والكوني، مع تغيير جذري في أدوات الهيمنة واستراتيجياتها. إنَّ فكفكة الاستعمار كانت من أجل إعادة الانتشار، وتغيير أدوات القمع. وهذه الهيمنة بدورها أنتجت مقاومة من طبيعة سياسية وثقافية بشكل خاصٍ. ويتجلى السرد اليوم بوصفه الأداة الجمالاتية الأكثر جرأة على فضح الطبيعة العنصرية للغرب الذي يحوّل الآخرين إلى أفواج من البرابرة والبدائيين والعبيد الذين سخرتهم الطبيعة لخدمة الرجل الأبيض. وسننخذُ إحدى الروايات الجزائرية التي تتخذ من الاستعمار الفرنسي موضوعاً أثراً لديها، لتمثيل المستعمر والمستعمر على درجة واحدة من الصدق الفني والانسجام مع حقائق الأمور. سندرس رواية محمد ساري "على جبال الظهرة"، وهي عمل إبداعي قام بتمثيل مشهد من مشاهد المقاومة التي أبداهها الأهالي في منطقة "مارسو" الواقعة غرب العاصمة.

تمثيلات المستعمر:

رواية "جبال الظهرة" لمحمد ساري مشبعة بالصّور التمثيلية التي تختزلُ معاناة شعبٍ واقعٍ تحت الاحتلال، فاقدٍ لكلِّ مقوّمات الكرامة وأدنى شروط الأدمية. وأوّل ما يطالعنا فيها هو مشهدُ الشيخ "بولماحين" وهو متّجه لزيارة ابنه في المعتقل، في أعالي مناصر؛ وقد كان برفقة زوجته وابنه المحبوس لدى الجيش الفرنسي. كانت هذه السردية خطاب إدانة قويّة لممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر؛ ذلك الاستعمار الذي يدّعي أنّه جاء بمشروع التنوير والتحديث للعرب المتخلفين والبدائيين. ومع ذلك فهو يهين الأهالي الأبرياء بشكل غير إنساني، ويجرّدهم من كرامتهم، بغض النظر عن علاقتهم برجال المقاومة. كانت رحلة "بولماحين" في يومٍ ممطرٍ شديد البرد، وكانت وسيلته الوحيدة هي حماريّتناوبٍ عليه أفراد العائلة من النساء. لقد كانت رحلة عذابٍ فوق طاقة البشر، وكانت العائلة

مدفوعة بحنينٍ جارِفٍ للابن المعتقل الذي لم يمض على زواجه غير نصف عامٍ. "في هذا اليوم من أيام فصل الشتاء، تحت وابل سيلي ورياح هوجاء باردة، تعصفُ من الشّمال، في هذه الروابي الغضاريّة الموحلة، يركبُ رجلٌ حماره، وينحدرُ عبر دربٍ وعِرٍ، تتبعه امرأتان بخطوات سريعة، ملحفتين بلحافين أبيضين، وتحاولان الالتحاق بسير الحمارِ في صعوبة فائقة؛ ثيابهما مبللة، والأرجل تفرّغ في الوحل الدّابق عبر الدرب الجبلي الملتوي"¹. كانت العائلة مدفوعة بقلق كبير على الابن المختطف، الذي غيَّبه الاستعمار بينما كان يمارس عمله اليومي في الفلاحة، بتهمة التعاون مع المجاهدين. ويدركُ الأهالي في تلك الظروف الحاسمة للبلاد، أنّ الحرب بين المستعمر وبين الشعب هي حرب وجوديّة، لا تقبل التفاوض والحلول الوسطى. كلّ طرفٍ فيها يسعى لنفي الطّرف الآخر. إنّ كلّاً منهما لا يقبل التعايش مع الآخر، ويحاول تحييده بكلّ السبل. الاستعمار يحوّل الأهالي إلى عبيدٍ يستخدمهم في ترقية اقتصاده، مقابل إبقائهم على قيد الحياة. غير أنّها حياة شبيهة بحياة الدواب المسخرة لخدمة أرض سيّدها. لقد جسّد الاستعمار الفرنسي علاقة السيّد بالعبد التي نظّر لها هيجل، في القرن التاسع عشر، في الفترة الدّهبية للحدّاث الغربيّة المظفّرة، وفي مرحلة ترسّخت فيها عقيدة المركزيّة الغربيّة، وسيادة الأوروبيين ليس فقط على العرب، ولكن على كل الشعوب غير الأوروبيّة. وهكذا يتأكّد أنّ "الاستعمار ليس آلة مفكرة وليس جسماً مزوداً بعقل، وإنما هو عنفٌ هائج لا يمكن أن يخضع إلّا لعنفٍ أقوى"². فالذي لا يفكر إلّا انطلاقاً من قوّته الماديّة الطّائرة، لا يمكنه أن يستشرف حجم القوّة المضادّة لفعله.

بينما كانت عائلة كروّش تردّد أنفاسها المتعبة من مشقّة الطّريق الجبلي ومن البرد القارس والأمطار الطوفانيّة التي رافقت رحلتها، كان الجنود الفرنسيون يستهزئون بـ"بولحايين" وهم يسألونه عن سبب مجيئه. "ماذا تريد منا أيها الراعي"³. كانت كلمة "الراعي" صفة محقّرة في الثقافة الكولونياليّة، إذ يُنادى بها العرب الذين لا يتقنون إلّا الرعي. وهي مهنة وضيعة في نظر الحارسين الفرنسيين. فالراعي هو من يرعى غنم السيّد، لأنّ

¹- محمد ساري، 1988، على جبال الظهرة، الطبعة الأولى، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 4.

²-فرانس فانون، 2015، معذبوا الأرض، ترجمة سامي الدروبي، وجمال أّاسمي، مدارات للأبحاث والنشر، ط الثانية، القاهرة، ص 59.

³- محمد ساري، على جبال الظهرة، ص 21.

هذا الأخير، صاحب القطيع لا يمارسُ الرعي، وإنما يكلفُ به شخصا من الفئة الأقلوية في المجتمع، تلك التي لا تملك أي مستوى تعليمي، ولا تحوز على أي مهارة أخرى بخلاف الرعي. هي إذا صفة محقّرة تلك التي نودي بها "بولماحين" الذي جاء يبحث عن ابنه "كروش عبد القادر". واللافت هو اللّهجة الحادّة والمعنّفة التي خاطب بها الجنديان الفرنسيان "بولماحين". يعتقد المحتل أنّ حربا استباقية مستمرة بإمكانها أن تبقي المستعمر في غيريّة أبدية، وتمنع كلّ أشكال الاحتجاج التي بإمكانه تطويرها. ومن هنا يأتي التّعنيف والغلظة التي يُعاملُ بها الأهالي. كما يعتقدُ المعمّرون بأنّ العرب عرقٌ خُلِقَ ليكون محكوما، وعليه أن يقبل وضعيّة التابع في مقابل أن يبقى عل قيد الحياة. وهي حياة أقرب إلى حياة الأنعام والدّواب التي تعيش في اندماجٍ مطلقٍ مع الطّبيعة. يُحشّرُ الجزائريون في غيتوهات التّمييز العنصري، وتُنزَعُ منهم الأراضي الخصبة وتُعطى للمعمّرين الأوروبيين. فالعرب لا يستحقون الخيرات التي يترّعون عليها، ويجبُ أن تعود لأصحابها.

يعمل المستعمر على إبقاء الأهالي في حالة رعبٍ دائم، حتّى لا يفكّروا في التمرد، والالتحاق بالثّوار الذين ينطلقون من الجبال والأدغال، ليعودوا إلها بعد تنفيذ عمليات عسكريّة يهدّدون بها الوجود الفرنسي والأوروبي بشكل جدّي.

وقد أقامت فرنسا مراكز للتّعذيب لافتكاك أسرار الثورة والقضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها. أعتقل كروش عبد القادر لتعاونه مع المجاهدين وأُخذَ للمعتقل ليخضع لعملية تعذيب مروعة، وكان ذلك اختبارا لمدى إيمانه بقضيته. "اللّعة على تلك الساعات الأولى التي أخضعوني فيها إلى التعذيب... ربطوني بحبل نيلوني إلى الشباك الحديدي ويدي تقطران دما...كم كانت تؤلمني! أشعر بها حتّى الآن...أحسّ بها أكثر من كلّ العذاب الذي ذقته"¹. كانت أشكال التّعذيب الذي فرضته فرنسا على الجزائريين أسطورية، وكان ذلك سقوطا أخلاقيا وفكريا لمشروعها الأنوراري، ولإنسانويّتها الوهميّة. كانت فرنسا، ومن خلال مبادئ ثورتها على القصر أواخر القرن الثامن عشر، تنادي بقيم الحرّية وحقوق الإنسان، وكانت تتبنّى سرديّة المجتمع الكوني، حيثُ تنعمُ البشريّة بنظام دون طبقات ودون تمييز عنصري ودون كراهية. ولن يكون ذلك إلاّ بزعماء أوروبا صانعة الحضارة العلميّة الحديثة، يكون الإنسان محورها، ونقطة ارتكازها، وهدفها النهائي. وإنّ ورشات التّعذيب التي أقامتها في أراضٍ خارج

¹-محمد ساري، على جبال الظهرة، ص 49.

حدودها من أجل أن تحكم بالقوة العسكرية مجتمعاً أجنبياً دليلاً قاطعاً على فشل سرديتها، ودليلاً على أنها حكومة استعمارية، اتخذت من قوتها العسكرية والاقتصادية مسوغاً لاحتلال بلدان أقلّ تطوراً منها. وليس ذلك فقط، ما يقف وراء احتلال الجزائر، وإنّما الطّبيعة العنصريّة للعقل الكولونيالي الذي يصنّع سياسة الدول الأوروبيّة خارج حدودها. إنهم يعتقدون أنّ غير الأوروبيين برابرة وهمجيين، وحيوانات، ويجب أن تحكمهم أوروبا. عندما كان الجنود الفرنسيون يستنطقون كروش عبد القادر كانوا ينعتهون بأحطّ النعوت التي لا تنسجُم مع رجالٍ من حضارة تدّعي لنفسها الإنسانيّة. "تكلم أيها الحيوان، تكلم أيها العربي القذر"¹. كانت صفة العربي في الثقافة الاستشراقية صفة محقّرة تختلّ كلّ معاني الانحطاط والتخلف والدونية والقذارة. وفي رواية "الغريب" لألبير كامي، يتمّ تجريد الشخصيات الجزائرية من أسمائها، فهم عربٌ وكفى، دون أسماء، وإذا دون هويّة، ودون تاريخ، ودون مرجعيّة حضارية. "إن هذا العربي لا اسم له، ويبدو دونما تاريخ، دع عنك أن يكون له أب أو أمّ. "وصحيحٌ أيضاً أنّ العرب يموتون بالطّاعون في وهران، بيد أنهم دون أسماء كذلك"². ذلك أنّ صفة العربي في المخيال الرمزي للكولونيالية تفي بتعيين الهوية الجماعية لتلك الكائنات، فهي صفة جامعة وشاملة لكلّ ما هو مختلف وغريب ومشين ومزدرى. والعربي في الوعي الجمعي للأوروبي مقتربٌ بالقذارة، فهي صفة جوهريّة فيه وليست عارضة. وصفة الحيوانية صفة مكّملة، ووظيفية. فالحيوان مسخّرٌ لخدمة الإنسان، وكذلك العربي مسخّرٌ لخدمة السيّد القادم من المركز من أجل خدمة الحضارة الإنسانية، والرقى بها إلى أعلى مراتب التاريخ. "جننا إلى هذه الأرض المتخلفة لنشر الحضارة، لكي يرتقي الرجل الأنديجان إلى رجل متحضر، لكن للأسف الشديد لا تفقهون هذا المغزى"³. إنهم لا يفقهون المغزى من خطاب فرنسا لأنهم متخلفون إلى درجة تعود بهم إلى مرحلة الطّفولة التي تسبق النّضج العقلي. إنّ العقل العربي لا يرتقي إلى الدّكاء الذي يؤهّله لإدراك حكمة السياسة الفرنسيّة. "فالعرب مثلاً يُتصوّرون راكبي جمال، إرهابيين، معقوفي

¹-محمد ساري، على جبال الظهرة ص 49.

²-إدوارد سعيد، 2004، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة الثالثة، دار الآداب، بيروت، ص 236.

³-محمد ساري، على جبال الظهرة، ص 44/43.

الأنوف، شهوانيين، شرهين، تمثّل ثروتهم غير المستحقّة إهانة للحضارة الحقيقيّة¹ والأوروبيون موجودون هنا، ليس فقط من أجل مصلحة المركز، وإنّما من أجل العرب، وغير الأوروبيين عموماً. إنّ مهمّة الامبراطوريّة مهمّة شموليّة وكوسموبوليتيّة، ذات بعد إنساني، والأهالي متهمون بسوء تلقى هذه الرسائل.

إنّ عبارة الأنديجان (indigene) هي الأخرى عبارة مُحَقَّرَة. فقد تعني حيواناً أهلياً، أو أصلياً. يُنظَرُ للثوار على أنهم إرهابيون، وهم ضدّ الحضارة، رافضون للحدّات الغربيّة، يحنّون إلى الحياة البدائيّة. ويهدف الحضور الغربي إلى ترويضهم وتهذيب شذوذيتهم من خلال التعليم والتربية والتأهيل.

من الصفات التي لازمت سرديّات الأصلايين في الأرشيف الثقافي الكولونيالي صفة "القدارة". فالعربي قدّر، لا يحسنُ الاعتناء بمظهره ونظافته جسمه، قد ألف العيش في مستنقعات الذباب والنّاموس والحشرات السّامة. وثيابه وسخة، ورثّة وممزّقة. وحتى وإن امتلك المال لاقتناء ما هو جديد، فإنه يفضل إنفاقه على السّكر وبيوت الدّعارة، بدل إنفاقه على سلامة الجسد وحسن المظهر. لمّا أمر الضابط المسؤول عن المعتقل بأن يطبخ المساجين أكلهم بأيديهم، عقّب الحارس معلقاً: "وهل يحسن الطبخ هؤلاء القذرون؟". إنّ هؤلاء "القذرين" يقودون في تلك الأثناء ملحمة التّحرير، دون الحاجة إلى حدّات الاستعمار، ولا إلى مدنيّته، أو تعاليمه، أو هداياه التي يسوّفها لمستعمراته. إنّ هؤلاء "القذرين"، سيستغلّون وجودهم في مطبخٍ وسيدبرون عمليّة فرار جماعيّة، بعد ذبح عدد كبيرٍ من الجنود والضباط.

إنّ صفة القدارة كليشي يتردّد كثيراً في أدبيات الاستشراق الغربي الحديث. فالعرب والمسلمون كثيراً ما يوصفون بالقدارة في أجسامهم وثيابهم وطرقاتهم. بينما فضاؤهم يغزوه الذباب والنّاموس والروائح الكريهة وما ينجرّ عن كلّ ذلك من أوبئة وأمراض تصيب الأطفال والنساء والشيخوخ. إنها الأمراض الناتجة عن التخلف وسوء التغذية وتلوث البيئة. ويعدّ الاستعمار السبب الأساسي لكل تلك الأمراض وما يقف وراءها من مظاهر التخلف. من ناحية أخرى تتردّد صفة "التوحّش" و"الهمجيّة" في سرديّة الأصلايين المتمرد على السيّد.

¹ إدوارد سعيد، 2005، الاستشراق، الطبعة السابعة، 2005، مؤسسة الأبحاث العربيّة، بيروت ترجمة كمال أبو ديب، ص 131.

يصفُ نقيب مشرف على المعتقل مع عريفه يصف الحرب ضد العرب ويستصغرُ من شأنهم. "عدونا فارغ اليدين لا يملك شيئاً عبارة عن وحوش هربوا إلى الجبال ببنادق الصيد ظننا منهم أنهم سيحاربون فرنسا العظيمة التي صمدت وانتصرت على جيوش هتلر"¹. يبدو الثوار في هذا التوصيف على أنهم خارجون عن قانون الحضارة والمدنية، إنهم منشقون عن الصف، وجزاء من يفعل ذلك أن يُؤدَّب ويعاد إلى الحضيرة. إنهم لا يملكون إلا بنادق صيد، وهذا يبعدُ عنهم صفة الجيش النظامي، ويؤكد في حقهم صفة العصابة المتمردة عن القانون التي يجبُ ردها إلى بيت الطاعة أو القضاء عليها. فجيء فرنسا الذي انتصر بالأمس القريب على النازية لا تعجزه العصابة المارقة.

يبدو أنَّ الاستعمار أو وكلاءه لا يزالون يعالجون الكليشيات نفسها. إنَّ أيَّ مقاومة تبزغ في أثناء حالة استعمار أو استبداد سياسي، توصف بالإرهاب والخروج على القانون والهمجية والعنف، وما شابه ذلك. إن النظام الكولونيالي يخضع إلى نظام ثقافي واحد، في كلِّ العصور وفي كلِّ الظروف. وهو يمرر مضمراته الثقافية في الخطاب الأدبي من خلال الاستعارات والكنايات نفسها.

سيكولوجية المستعمر:

قلنا في مواطن عديدة، وفي دراسات سابقة، إنَّ عقيدة التفوق الغربي كانت هي المحرك الأقوى الذي يوجِّه سلوك الدول الاستعمارية الكبرى في حقبة الاستعمار القديم، كما الآن، في حقبة الامبريالية الأمريكية. إنَّ استشعار القوة العسكرية يُمِدُّ الحكومات الغربية بالجرأة على التمدد خارج حدودها، وإنَّ الاعتقاد أن غير الغربيين، من دول آسيا وإفريقيا ضعفاء ومتخلفون في الجوهر من وجودهم، يترك انطبعا أن استعمارهم هو حتمية تاريخية. فالقوي في حاجة إلى ضعيف يمارس عليه قوته، والضعيف في حاجة إلى قوي يحميه، ويطوره ويؤهله ليمارس وجوده الحقيقي ضمن مسار تاريخي واع ومكتمل الشروط. غير أنَّ الاستعمار سريعا ما يتخلَّى عن خطابه الإنساني بمجرد أن يتمكن من الأرض، ويلحقها بالمركز، من خلال اقتلاعها من سياقها الثقافي والتاريخي، وربطها بشروط وجود غريبة. لقد كان التوسع الغربي "مشجعا ومفيدا لأوروبا. فهو وضع في متناولها مساحات إضافية ترسل إليها فوائضها من الرِّجال، كما وضع في متناول يدها حضارات غنية قابلة للاستغلال

¹ - محمد ساري، على جبال الظهيرة، ص 79.

والاستثمار، وهي لم تحرم نفسها من استغلالها"¹. وعليها أن تصنع شروط بقائها الأبدي في المستعمرات التي ترحّل إليها نمطها الحضاري.

لم يكن خطاب التّحضير مقنعا للأهالي، في ظلّ نظام كولونيالي يمارس كلّ أشكال الاضطهاد والتمييز العنصري والمسخ الثقافي في حق أصحاب الأرض. وبما أنّ بقاء الاستعمار أضحى من أساطير التاريخ البائدة، فإنّ نشوء مقاومات هنا وهناك مسألة بالغة الأهمية. وإنّ نشوء آلة لقمع هذه المقاومات هو أيضا مسألة بالغة الأهمية. وحينئذ سيكون تاريخ الوجود الغربي في المستعمرات هو تاريخ العنف والعنف المضاد. ولقد أبدع الاستعمار في اضطهاد الأهالي وإذلالهم، والتحقير من شأنهم، من أجل تدجينهم وهزيمتهم من الدّاخل. إنّ العبد يتشبع بفكرة العبوديّة قبل أن يتدوّقها ويستسيغها بوصفها الحالة الطّبيعيّة لنظام كونيّ قاهر. وضمن هذه العلاقة بين السيّد والعبد نحاول رسم معالم استراتيجيات الهيمنة التي يرسمها النّظام الكولونيالي من خلال تجربته في الجزائر.

يصف لنا السارد في رواية "على جبال الظهرة" لمحمد ساري بعض مشاهد تعذيب الجزائريين الذين يستخدمهم الجيش الفرنسي في مشاريع لا علاقة لها بمصلحة أصحاب الأرض. كانت مجموعة من المعتقلين قد أُخذت لحفر ممرات بين الجبال يستخدمها الجيش الفرنسي في ملاحظاته للثّوار. وكان من بين هؤلاء السّجناء شيخٌ طاعنٌ في السن، قد أعياه الفأس إلى حدّ الانهيار. "اشتغل الرجل حتى انهارت قواه وسقط أرضا، كانت هيأته هزيلة ونحيلة، يرتدي سروالا عربيا مرقّعا وشاشية بيضاء اسودت أطرافها، حملق الجميع في الحادث وانتظروا بفارغ الصبر متوجسين مما سيحدث"². غير أنّ الجنديّ الحارس توجّه نحوه شاهرا في وجهه بندقيّته، مهدّدا بإفراغها في جسده إن هو لم يستأنف العمل. ولقد أبدى رفاقه تعاطفا معه وتوقفوا عن العمل احتجاجا على سوء معاملته وإكراهه على عمل لا يطيقه، غير أنّ مقاومتهم لم تصمد أمام البندقيّة المشهورة في وجوههم. لقد كان تهديد العريف الحارس جادًا، ولديه تعليمات حاسمة من ضابط المعتقل بإطلاق النار بمجرد إبداء أيّ شكلٍ من أشكال المقاومة.

¹-جورج قرم، 2011، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، الطبعة الأولى 2011، دار الفارابي، بيروت،

ترجمة رلى ذبيان، ص174.

²-محمد ساري، على جبال الظهرة، ص66.

لنتأمل الآن مشهداً سردياً، يختفي من ورائه كمّ هائل من الساديّة والتلذّذ بشقاء المعذّبين في الأرض. "فجأة هطل المطر مدراراً، كالوابل السيلي يبلل الأرض. كانت قطرات المطر ذات حجم متميّز، تنهمر بقوة كالصقيع على رؤوس الجميع. أسرع العساكر إلى الأماكن القريبة التي تمكنهم من تقليل قوة المطر وهم يشهرون سلاحهم نحو المساجين الذين لم يتحركوا من أماكنهم ولم يتوقفوا عن العمل. وجد بعض العساكر مكاناً يختفي تحته من المطر تحت جذع شجرة، ووضع البعض الثاني باقة من الأعشاب والأغصان على الرأس. تبلل التراب شيئاً فشيئاً حتى أصبح استعماله من أصعب ما يكون. يلتصق التراب بالبلل والوحل في الفؤوس والمعاول ويصير تحريكها صعباً. بعد قليل من انهمار الأمطار الوابلة أصبح المكان الذي يعمل فيه المساجين عبارة عن بركة من الوحل الملتصق الدّابق (...). يتفرج العساكر على هذه المشاهد ويتمتعون بشقاء الآخرين"¹. تتعمّد السلطة العسكريّة استخدام المساجين في مثل هذه الأشغال الشاقّة، وتتلذّذ بتعذيبهم وبقدر ما يشعرون بالإرهاق والتعب والتعب والجوع، بقدر ما يسعد العساكر الذين يراقبون المشهد. إنهم يعتقدون أنّ إذلالهم وإشغالهم بما يشقّ عليهم من شأنه أن يكسر إرادة المقاومة في أنفسهم، فيسلمون أن الأمان هو فيما يرى الطّرف الأقوى. "من رحم هذا العالم الموغل في البؤس سيتخلّق خطاب الرفض والثورة، خطاب ما بعد كولونيالي، يمعن في تفكيك سرديّة الاستعمار وكشف تناقضاتها وهشاشة بنيتها الفكرية"². كان الاستعمار يحمل بذور فنائه في ذاته، فبقدر وتيرة العنف الذي يمارسه على الضحيّة، بقدر عنف الثورة وتصميمها على إذلال الكولونياليّة.

إنّ القوّة المفرطة ضرورة كولونياليّة، تُشعرُ المعمّرين والعساكر بالأمان، والتحكم في المشهد الكولونيالي عموماً. وإزاء هذه المعادلة لا يصمد الخطاب الأخلاقي الذي يستظهره الغرب كلّما كان في موقع الدّفاع عن وجوده في المستعمرات، وكلّما شعر بتهديد يتقصّد هذا الوجود الإشكالي. إنّ الذي يتجاهله الاستعمار هو أنّ وجوده غريبٌ خارج حدوده، وأنه يتعدّ تأمين هذا الوجود بشكلٍ أبدي. فمن رحم المعاناة التي يكابدها المستعمرون يولد خطاب الرفض،

¹- محمد ساري، عل جبال الظهيرة، ص 102/101.

²- إبراهيم بوخالف، 2021، الكولونياليّة وما بعدها، مجلة اللغة العربيّة وأدائها، المجلد 13، العدد 2،

2021/09/15، ص 10.

وينمو بالتدريج، حتّى يغدو مطرقة من نارٍ تحرق جباه الجنود، وتقضّ مضجعهم. وإن قوّة هذه المطرقة تتضاعف بقدر ما يتضاعف عنف الكولونيالية. ولقد رأينا في مشهد السجناء المعتقلين الذين يستخدمهم الاستعمار في تعبيد الطّرق التي تسهل على الجيش الفرنسي ملاحقة الثّوار، كيف تمكن هؤلاء من تنظيم عملية فرار دموي رغم العنف الذي كانوا يُعاملون به من قبل عساكر الحراسة. فالقوّة تولّد القوة، ومن رحم العنف يبرزُ عنفٌ مضادّ. إنّه ردّ الضّحيّة على الجلاد.

كان الجنود يلزمون السجناء بأعمال شاقّة وفي ظروف طبيعيّة لا تطاق؛ وكان ذلك دعوة مبطنّة لكي يتمردّ السجناء على جلادهم. "إنّ العمل الإكراهي لا يقوم على تعاقد، ولا بدّ عدا ذلك من التّخويف، وهكذا ظهر الاضطهاد"¹. ومن رحم الاضطهاد تبزغ بذور الثورة. إنّ الذي يملك القوة يفتقر إلى الذّكاء، والذي يفتقر إلى القوة الماديّة يبحث عن مصادر قوة من نوعٍ آخر، كالتي اهتدى إليها الثّوار الجزائريون لطرد الاستعمار الفرنسي، وكالتي اهتدى إليها الأفغان في منتصف ثمانينات القرن العشرين لطرد الروس، أو تلك التي اهتدى إليها الفيتناميون لطرد الأمريكيين، أو تلك التي اهتدى إليها قادة طوفان الأقصى. ولا يزال الاستعمار إلى يومنا هذا لم يتعلم من أخطائه. إنّ نوم الشّعوب ليس أبدياً وإنّ الحكومات العميلة أعجز من حكومة الاستعمار القديم. فهي لا تملك قوته ولا تملك ذكاء المستعمر، لأنّها تخلت عن تلك الصّفة بمجرد قبولها التحالف مع الامبرياليّة.

إنّ كلّاً من المعمرين والجنود الذين يحمون ظهورهم من سياط الأهالي، لا يؤمنون بتساويهم مع العرب. لقد أقروا أنّ "المستعمر ليس شبيه الإنسان، وعُهد إلى قواتنا بمهمة إحالة هذا اليقين المجرّد إلى واقع"². من أجل ذلك يمعن الجنود الفرنسيون في إذلال الأهالي والأسرى والمساجين لأنهم انتهكوا طهريّة الرّجل الأبيض وتجسّروا على خدش كبريائه، وإبداء الرغبة في الخروج عن طاعته، وإعلان الولاء للأسلاف، والتحيّز للثقافة الأمّ. ويُعدّ هذا تهديدا وجوديّاً للاستعمار.

¹-جون بول سارتر، 2015، مقدمة كتاب: معذبو الأرض، من تأليف فرانس فانون، ترجمة سامي

الدروبي وجمال الأناسي، مدارات للأبحاث والنشر، ص25.

²-جون بول سارتر، معذبو الأرض، ص 25.

تسعى اليوم دولة إسرائيل المحتلة إلى افتكاك اعتراف الفلسطينيين بيهودية دولة إسرائيل، وهو اعتراف في حالة حصوله، يُعدّ تسليما بشرعية الاحتلال وأحقّيته في الأرض التي يحتلّها منذ النصف الثاني من القرن العشرين، كما يُعدّ ذلك لإقرار بأن العرب بكلّ أطرافهم هم مواطنون من الدّرجة الثانية، وإذا سُمح لهم بالبقاء في قراهم فلكي يكونوا عبيدا للأسياد الجدد. وهو ما ترفضه المقاومة الإسلامية بكلّ تشكيلاتها، بينما تقبل به الحكومة العميلة في الضفّة الغربيّة.

من أجل أن يتخلّص الفرنسيون من تناقضهم الفاضح، المتمثّل في مخالفة ما تؤمن به فلسفاتهم الإنسانيّة، ومن أنّ البشر متساوون في الكرامة، وأنه لا يحقّ للقويّ الاعتداء على الأقلّ قوّة، من أجل ذلك عمد الفرنسيون إلى إحالة العرب إلى مستوى القروء الراقية. وبذلك تتراجع أطروحات الفكر الفرنسي إلى القرون الوسطى، لما كان الأوروبيون يفترضون أنّ سكّان أمريكا، تلك القارّة المبعدة عن الحداثة الغربيّة-لا يمكن أن يكونوا بشرا، وأنّ الله تعالى لم يخلق كائنات بمثل وحشيتهم. إنّ مبعث هذه الادّعاءات هو رفض الأوروبيين لمبدأ الاختلاف الثقافي، وأنّ كلّ ما لا يتناسب مع خط التطور الأوروبي فهو أقلّ قيمة، ولذلك يصار إلى إفراغه من المعنى. وبسبب تلك الغيرة ذهب الغزاة الأوروبيون إلى إبادة الأصلايين، من أجل التخلص منهم واحتلال أراضيهم. ولم يجدوا فيما فعلوه أي شعور بالذنب، أو تأنيب للضمير، كالذي وجده الألمان بعد الحرب العالميّة الثانية، وبعد هزيمة النازيّة. لقد أقرت الحكومة التي أعقبت الهتلريّة بأن السياسة النازيّة تمثّل جريمة إنسانيّة في حقّ اليهود، واستفادت دولة إسرائيل من التّعويض المادي، كما عمدت أوروبا التي اضطهدت تلك الجماعات المشرّدة إلى تعويضهم ولكن على حساب أقلّيّة أخرى، تحولت هي أيضا إلى أقلّيّة مضطهدة ومشرّدة. نقصد بذلك فلسطين، التي لا تزال تقاوم جلاذيتها وتحدّي الحصار الدّولي الذي يطوّقها من كلّ أبعادها. إنّ الاستعمار ملكة واحدة، مهما كان زمنه، وفلسفته واحدة مهما تباينت مرجعيّاته. والصّراع بينه وبين أصحاب الأرض أزليّ، وإن اختلفت أدواته وأساليبه.

إنّ العنف الكولونيالي يسعى إلى تجريد المستعمرين من آدميتهم، تجنباً للملامة. وهو لذلك يُجهد من أجل القضاء على عاداتهم وتقاليدهم من أجل أن يُخلّل لغته بدل لغة أصحاب الأرض. إنه يقضي على ثقافتهم ويفرض تحويلهم إلى المثل. وبسبب ذلك يُمنع دخول العرب إلى المدارس الكولونياليّة، كما يمنع على العرب ارتياد المقاهي ودور السينما والمطاعم

المخصصة للمعمرين وجنود الاحتلال. إنّ وجود العرب يسمم حياة الأوروبيين. ولذلك كانوا يُحشرون في أكواخ أطرافيّة، محاذية للوديان وأعالي الجبال التي لا تطالها المدن الكولونياليّة. إنهم عادة ما يُدفعون إلى الأراضي الأقل خصوبة والتي لا تصلح لا للسكن ولا للفلاحة.

لقد أبدع المستعمر من خلال القوة العسكريّة التي تلازمه في إذلال الأهالي الذين يشكّلون تهديدا لوجوده؛ وكان الهدف إمّا القضاء عليهم، وإمّا تحويلهم إلى دواب تطبّق ما تؤمّر به، وتنقاد حيث تقاد. غير أنّه لا اللطامات ولا التّجوع ولا القتل كان قادرا على قتل روح التمرد في نفوس الأهالي. من غير الممكن تحويل الأدمي إلى بهيمة، كما أنّه من غير الممكن تغيير بشرة الملّونين إلى بشرة بيضاء. ذلك ضدّ منطق الطبيعة ومخالف لسنن التاريخ. "وتكون النتيجة ألاّ يكون هذا المستعمر إنسانا ولا بهيمة، وإنّما يكون من نوع السكّان الأصليين، إنه وقد أحيط بالضرب والتّجوع والمرض والتّخويف، ولكن على حدٍّ محدود يتصفّ خلقه دائما بصفات واحدة، سواء كان أصفر أم أسود أم أبيض؛ وهذه الصّفات هي أنه كسول ماكر لصّ، يعيش بالقليل ولا يعرف إلاّ القوّة"¹. وما يعجز المستعمر عن البوح به، هو أن الأصلاحيّ يلجأ إلى الكسل كطريقة للمقاومة. إنّهُ يعمدُ إلى تدمير الاقتصاد الكولونيالي من خلال التهاون في إنجاز ما يُكلّف به. وهو لا يتوانى عن سرقة أشياء المعمرين إمّعا في التّشويش على سكينتهم، وتكبيدهم خسائر ماديّة، تلحق بهم الضّرر الماديّ والنّفسي. إنّهُ يُجهّد نفسه في تنغيص حياتهم في الأرض المسروقة. فذلك هو خطاب المستعمر إلى المستعمر، لإدانة وجوده في بلد ليس له ولا لأسلافه. ولا يستطيع المستعمر أن يغيّر التاريخ، ولا أن يزور الحقائق حتّى وإن غيّر معالم الجغرافيا، ورخّل مؤسساته الثقافيّة والاقتصاديّة إلى الدّاخل من أجل إلحاقه بالمركز.

وأما كونُ المستعمر لا يعرف إلاّ القوّة، من قبيل قولنا أنّه متوحش وهمجي، فإنّه يردّ إلينا قوّتنا التي واجهناه بها. "إنّ العنف يرتدّ إلينا ويضرّنا، ثم نحن لا نفهم أن هذا العنف هو عنفنا نحن أكثر مما فهمنا ذلك في المرات الأخرى"². لا يفعلُ الأصلاحيّ إلاّ أن يردّ الفعل، وبالوحشية نفسها التي يتلقّاها.

¹-جون بول سارتر، مقدمة كتاب (معدّبو الأرض) لفرانس فانون، ص 26.

²-م نفسه، ص 29.

يحاول المستعمر ترهيب الأهالي، غير أن "هؤلاء يبدون تحدياً أسطورياً، فلا الموت يردعهم ولا السجن يكتبلهم، ولا التعذيب يهزمهم. وينتهي المستعمر إلى أن يصاب بالإرهاق جراء تعذيب الضحية، وتمسكها بموقفها، ورفض التعاون. لا يستطيع الجنود أن يمعنوا في القتل إلى حدّ إبادة النوع، وكما لا يمكنهم أن يستمروا في تعذيب الأهالي أو تحويلهم إلى بهائم تنساق وراء ما يراد لها. وإنّ من نتائج هذا المأزق السيكولوجي الذي وُضع فيه المستعمر هو إعلان العجز عن مقاومة المقاومة، وقتل الثورة، ودفن معالم العدو. إنّ الأقلية التي اختارت أن تتعامل مع السلطة المحتلة لم تتمكن من تغيير الكثير من ميزان القوى. ولم تتمكن من تحويل وجهة المعركة لصالح المحتلّ، رغم القوة الأسطورية التي يحوزها. ورغم هول العذاب الذي يكابده الأهالي، لمجرد الشكّ في تعاملهم مع الثوار، أو لمجرد أن فرداً من القرية التحق بالمجاهدين. فمحمد كروش، بطل رواية "على جبال الظهرة"، سُجن لأنّه أعان المجاهدين على تخريب الطريق الذي يسلكه الجيش الفرنسي في ملاحقته للثوار.

الفرق بين المستعمر والمستعمر هو أن الأخير يقبل التضحيات ويتحمل التبعات، وبينما يبحث المستعمر عن احتلال دون خسائر ولا تبعات مادية أو أخلاقية. إنّه قديم إلى المستعمرة من أجل سرقة ثرواتها، دون التعرّض إلى المساءلة، أو تبكيّت الضمير. فعندما يُمارس علينا عنف الأَصْلَانِيّين، وهِزْمُونَا ف "إنهم يخلصوننا من الاستعمار، نحن أيضاً من أجل أوروبا، إنهم يجتثون بعملية دامية المستعمر الموجود في كلّ منا"¹. إنّها عملية جدلية تلك التي تحصل بين العبد والسيد، وبين المستعمر والمستعمر. إنّ أوروبا في حاجة ماسة إلى عملية تطهير جذري لاجتثاث أساطيرها وأوهامها التي ما فتئت تصنعُ مأساتها، وتعمق جراحها. إنّها تصدر أسوأ ما فيها لأحرقها، وتسقط عليهم عقدها واستهجمات. إنّ العنف الذي يهتم به الغرب العرب والأفارقة والآسيويين هو من صنع الأوروبيين أنفسهم، وقد شهد تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، أنّ أوروبا الاستعمارية هي التي تبادرُ بالعنف، بدءاً من الحروب الصليبية ومروراً بغزو أمريكا، وانتهاء بحروب الاستعمار الحديث. وإنّ حروب التحرير الحديثة لم تتمكّن من استئصال عنف المستعمر، وشهوة السيطرة على أرض الآخرين، وسرقة ثرواتهم. يبدو الغرب، واليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى لصاً ومستبداً، وبربرياً، وهمجياً. ومن صلبه ظهر أكلو لحوم البشر، في القرون الوسطى. وعندما نراجع كل هذه التواريخ

¹ -م نفسه، ص33.

ندرك مكر الامبريالية العالمية اليوم، في شكلها الغربي والشرقي الشيوعي، أو ما تبقى من الشيوعية. وإنّ أساليبها في سرقة ثروات الآخرين لم تتغير في الجوهر منها. غير أنّها أنشأت من أجل شرعنة ممارساتها الامبريالية من خلال مؤسسات دولية وقوانين من شأنها أن تصيب غير الأوروبيين بالخصاء والعى السياسي. لقد طوّرت أوروبا وأمريكا آليات رقابية تمنع على العرب والمسلمين أن يصنعوا أسلحتهم وينتجوا غذاءهم ودواءهم في بلدهم.

إرث الاستعمار:

ما الذي تركه المستعمر عندما أدرك عجزه عن الاستمرار في البقاء وفي مزيد من القتل والتدمير؟ إنه قرّر الانسحاب إلى المركز، ولكن بأقلّ الخسائر. "إن البورجوازية الاستعمارية حين تدرك عجزها عن الاستمرار في السيطرة على البلاد المستعمرة تقرر أن تخوض معركة خلفية في ميدان الثقافة والقيم والتكنيك وما إلى ذلك"¹. ومن أجل أن تريح هذه المعركة يتعين عليها أن تكوّن إطارات مثقفة وتوكل إليها مهمة النيابة عنها في حكم أصحاب الأرض بالوكالة، أي بالنيابة عن الاستعمار. إنّ كلّ الدول العربية التي حصلت على استقلالها الشكلي-بعد مفاوضات سرية في العادة-لم تفعل أكثر من تغيير شرطي أوروبي بآخر محلي. أمّا النظام الذي تسلم السلطة من قبل الجيش المستعمر، فقد كان خاضعاً لاتفاقيات سرية تبقى عملية الاستقلال شكلية ومنقوصة. فالولاء للمركز والتبعية الاقتصادية للرأسمالية العالمية، وارتهاق القرار السياسي للأجنبي، كلّ ذلك حرم الشعوب التي اشترت أرضها بالدماء والجراح والآلام من حريتها الحقيقية.

يتدرّع كلّ من المستعمر والمستعمر بطيّ صفحة الماضي وبالتعاون وفق منظور جديد؛ فيرسل مستعمر الأمم متعاونين إداريين وفنيين، لتأهيل الإطارات الوطنية؛ غير أنّ هؤلاء مكلفون بمهام سرية، مسكوت عنها. إنهم يأتون لسرقة ما عجزوا عن أخذه بالقوة. "غير أنّ المستعمر يدرك أنّ هذه التدرّعات إنّ هي إلاّ مناورات تخريبية وليس نادراً أن تسمع من يقول هنا وهناك: ما فائدة الاستقلال إذا؟"² ما فائدة التضحيات وآلاف الضحايا، وسنين العذاب الطويلة، إذا كان الثمن احتلالاً أكثر نعومة، وأشدّ قبحاً وشرية. إنه استعمار يقتسم مع المستعمرة القديمة خيرات البلاد، فيأخذ النصف، ويتنازل عن النصف الآخر للحكومة

¹-فرانس قانون، معذبو الأرض، 46.

²-م نفسه، ص 47.

التي أَلَّها في جيشه وجامعاته لتأخذ مكانه. وهذه الأخيرة تأخذ نصف ما يُعطى لها وتتنازل عن النصف الآخر لشركائها من كبار أصحاب المال والنفوذ العسكري والسياسي. أمّا الشّعوب التي كانت تقدّم القرابين للجبال، فإنّها تتدبّر مصالحها ممزوجة بعرق الجبين، وبآتات الجوع والشقاء والألم.

بعد الحصول على الاستقلال السياسي الشكلي، وتفكيك المستعمرات، طفا إلى السطح خطابٌ احتفائي، تمجيدي، يحكم باسم الشرعيّة الثوريّة والتفويض الشعبي المطلق. فالثورة كانت لا تزالُ تغلي، والقيم التي أشعلتها لم تنطفئ نارها بعد، وما بعد الثورة من تبعات لم تحسم بعد. لقد انشغل الشعب بأولويات البناء وتصميم المؤسسات وترميم القيم والسياسات الثقافيّة. وكانت الغنائم تقسّم، والمستفيدون يتسابقون لتأمين ما يتركه المعثرون. ووكلاء الاستعمار يذوبون في الثورة، والخونة الذين كانوا سندا للاستعمار يغيرون إقاماتهم في الوطن، حتى لا يتعرّف عليهم أحدٌ ممّن اكتوى بخيانتهم. إن الكثير من أرواح المناضلين والشهداء قضوا بسبب وشاية قدّمها عميل لجيش فرنسا. وتصور لنا الكثير من نصوص ثلاثيّة جلاوي خيانة العديد من القبائل وتعاملها مع المستعمر. وقد كان أهم هؤلاء القايد عباس ومن بعده ابنه جلول، ومسؤول الزاوية. كان هؤلاء محلّ احتفاء من الجيش الفرنسي، مضافاً إليهم المثقفون الذين تلقوا تعليماً فرنسيّاً، واندمجوا في فرنسا، وكانوا من دعاة اختفاء دولة الجزائر إلى الأبد. هؤلاء المثقفون كانوا مكلفين بمهمّة المحافظة على اللغة الفرنسيّة وهيمنتها على الحياة الجزائريّة بعد الاستقلال الشكلي. وسيصار لاحقاً إلى تغلغل أبناء هؤلاء المنسلخين عن هويتهم في أجهزة الدولة من أجل إنشاء قوّة ضغط لحساب النفوذ الفرنسي في الجزائر. إنّ أثر تلك الجماعات لا يزال إلى اليوم قوياً، وهو من وراء كل المآسي التي يكابدها الجزائريون اليوم.

إنّ للاستقلال طعماً وإنّ للنصر إيقاعاً، ومن الصّعب أن يعكّر هذا المناخ ما سيسبّي لاحقاً الثورة المضادة. فللثورة مضاداتها، وللقضيّة مفسداتها. وإن وكلاء الاستعمار هم مضادات الثورة وإنّ أثرهم لا يخطئه الإدراك على كلّ الأصعدة. والذي يعيننا في هذا المقام العلمي هو ما سيتجلى في نصوص ثقافيّة وإبداعيّة بعد الاستقلال. فقد اتّجه كثيرٌ من كتاب ما بعد الحداثة في الجزائر إلى سرد الثورة المضادة في الرواية الجزائرية المعاصرة. ومن أهم هؤلاء من أشرنا إليهم أعلاه: ياسمينه خضرا وساري وجلاوي. يركّز هؤلاء على ردّة المجتمع الجزائري في مجال القيم التي أُقيمت الثورة على أساسها. لقد شكّلت ثقافة الأسلاف في

الجزائر المرجعية الأولى والأخيرة للثورة. أما بقية المرجعيات المستعارة فلم يكن بعضها إلا رافدا ثانويا من روافد الثورة. كان الإسلام هو الدافع القوي الذي أوقد نار الثورة على عبثية الوجود الفرنسي، واستهتاره بقيم الشعوب وهوياتها. ومما تعلمناه من دروس التاريخ وعبرها، أنّ المساس بمقدّسات أيّ شعبٍ سيواجه بكل شراسة، مهما كانت قوة المستعمر.

الواقع أن فرنسا تفتّنت للأهمية التي تكتسبها الخيانات في كل الثورات التي شهدتها التاريخ القديم والحديث. لقد كانت الخيانة الأداة غير الواعية للتاريخ المعاكس. توجد سنن وأنظمة تعمل على الدفع بالتحوّلات الاجتماعية إلى المضيّ أماما، وتوجد سنن معاكسة لها في الاتجاه موازية لها في القوة، تعمل على العودة إلى الوراء، أو الثبات في النقطة الصفر على الأقل. من بين هذه السنن ظاهرة الخيانة في ثورة الشعوب الخاضعة للاستعمار والولاء للعدو. في هذا السياق تخطّربالبال شخصية "القايد" في تاريخ الجزائر المستعمرة، وما لعبته هذه الشخصية الاجتماعية من دور مثبّط ومحبط في مجال الثورة المضادة التي أتقنت فرنسا إدارتها. لقد كانت هذه الشخصية حاضرة بقوة في سردية ثلاثية جلاوي، وفي "فضل الليل على النهار" لياسمينه خضرا، وكانت حاضرة في سردية "على جبال الظهرة" لساري.

"جاء القايد ليأخذ الضريبة، أعطيناها القمح والشعير، لم يكف، أراد أن يأخذ الأرض، كان فوق حصان أبيض، محاطا بالجنדרمة، متباهيا في برنوسه الأبيض الناصع. أعطانا مهلة أسبوع لتدبير المال"¹. القايد هو قائد القبيلة، وزعيمها الروحي. تتصل به فرنسا، سرا أو علنا، وتعطه وعودا مغرية، مقابل التعامل معها، والقيام بدور المخبر، لتحديد العناصر الثورية، والمساعدة في إفشال روح الثورة على الوجود الفرنسي. وكان عادة ما يقوم بدور الوسيط بين الفلاحين والسلطة الاستعمارية، فيعمل على جلب الضرائب التي تفرضها فرنسا على الأهالي، إمعانا في إذلالهم وإفقارهم، وإشغالهم بلقمة العيش، كي لا يفكّروا في الهم السياسي. وكانت فرنسا تفرض ضرائب ضخمة، مقارنة بمدخول الفلاحين، وهي تتعمّد ذلك، حتّى لا يفكّر هؤلاء في تسريب فائض أموالهم لصالح الثورة. وكان الفلاحون إذا ما عجزوا عن تسديد ما عليهم من أعباء، يُلْزَمون بالتخلي عن أراضيهم لصالح القايد أو لصالح المعمرين.

¹-محمد ساري، على جبال الظهرة، ص 91.

كان حضور القايد لافتا في رواية ساري. بعد الاستقلال، مضت الحياة السياسيّة والاجتماعيّة على غير ما أريد لها. فالعناصر التي تعاملت مع الاستعمار وتكوّنت على يديه من أجل التسرب إلى أجهزة الحكم والعمل على إبقاء الجزائر تابعة لها، لم تغب مطلقا عن التحولات الثقافيّة والسياسيّة للبلاد. فقد كانت تترّصّ المواقف التي تؤهلّها للظهور بمظهر الوطني المخلص للبلاد من التخلف والتبعيّة للغرب، من خلال إنشاء خطابٍ مهمٍ، ملفوف بعاطفة مشبوبة، قادرة على المخاتلة والمخادعة للطبقات الشعبيّة الأقلّ تطورا وحنكة سياسيّة. وتمكنت بذلك من النفاذ إلى الدّولة العميقة وأخذ مواقعها في أجهزة السلطة وإدارتها، لتنشئ لوبي فرنكفوني، يعمل على ربط الجزائر بالمركز، وإبقائها تابعا أبديا للحدثة الفرنسيّة. وكان ذلك على حساب قيم الأسلاف والمرجعيّة العربيّة الإسلاميّة التي استوحت منها الثورة قيمها. فظهر في المجتمع الجزائري الانتهازيون والوصوليون هؤلاء الذين سعوا إلى الالتفاف على القوانين وضمّ ممتلكات الشعب على حين غفلة من العدالة. لقد تنكر جيل الاستقلال لبطولات الثورة، ولم تعد تضحيات الآباء تعني الكثير بالنسبة إليهم. إنّ الثقافة التي هيمنت على الساحة الوطنيّة والتناقضات الاجتماعيّة بفعل التفاوت الطبقي المعيب الذي أفرزته الرّدّة غير المعلنة، إنّ كلّ ذلك وأكثر منه قد صرف شباب جيل الاستقلال عن هموم الوطن الحقيقيّة. "فأما شباب اليوم فانصرفوا إلى حياة تختلف عن حياتنا، إلى مشاكله وثورته الخاصّة ولم يعد يعير أيّ اهتمام إلى حربنا نحن التي بفضلها يستطيع أن يرفع رأسه عاليا"¹. إنّ وعيا اجتماعيّا مشوها قد ظهر في أوساط جيل الشباب، فالسياسة الثقافيّة التي سادت الجامعات والمؤسسات التعليميّة والثقافيّة في الجزائر، وأحادية الحزب الحاكم الذي غيّب الديمقراطية لصالح الحكم الفردي المطلق، والتناقض العجيب بين خطاب السلطة والواقع المعيش فعليّا، إنّ كلّ ذلك قد ولّد جيلا محبّطا، غير قادرٍ على القيام بأعباء النهضة والتحول الاقتصادي والثقافي. وقد أفضت هذه الأزمة إلى انبثاق جيل من الإسلاميين الراديكاليين، الذين يرومون التّغيير من خلال العنف، ردّا على عنف السلطة. وكان من وراء ذلك أصوات من خارج الحدود وتعمل في الخفاء، تسعى للدفع بالمواجهة بين السلطة والمعارضة إلى مآلاتها القصوى. لم يكن ذلك بمعزلٍ عن الامبريالية

¹ -م نفسه، ص 204.

الغربيّة التي لم تتخلّ عن مستعمراتها القديمة. فقد كانت سردياتها الجلييلة لا تنفكّ تعبّر عن حنينها للأراضي المفقودة.

إنّ سياسة الاستقطاب التي تعمّدتها فرنسا تجاه الجزائريين، بعد الاستقلال لم تكن سياسة محايدة، فهي تضمن لها يدا عاملة رخيصة، كما تضمن الولاء الشعبي لمستعمر الأُمس، ففرنسا باعتبارها الوطن الأمّ لم تتخلّ عن التزاماتها تجاه أبنائها الموالين لها عاطفيًا وثقافيًا. إنّ المواطنين الذين التحقوا بفرنسا عقب انسحابها من الجزائر، والذين لحقوا بهم من بعد ذلك، قد تناسلوا وتكاثروا، وشكّلوا وحدة ثقافيّة موالية إيديولوجيا لفكر فرنسي. وقد جسّدوا قيمها في سردياتهم بالنسبة للمثقفين منهم. ومع سقوط جدار برلين وانتهاء الاتحاد السوفياتي، أضى الانخراط الفرنسي في السياسة الجزائرية علنيا، وقاهرا، وامبرياليا متوحّشا. وقد عمّق ذلك ولاء السلطات للأجنبي على حساب قضايا الأمة والوطن. إن الغرب يسرق خيرات الشعب في رابعة النهار، ويحوّلها للمركز من أجل تأييد تبعيّة مستعمرات الأُمس. إنّ الرّدّة أصبحت علنيّة ومتوحّشة، تملك خطابا تغريبيّا، يعمل على إفناء ثقافة الأمة وقطع الصلّة مع ماضيها الإيديولوجي والروحي.

يتحدّث شابّ جزائري عاطلّ عن العمل عن رحلة العذاب بحثا عن مصدر رزق في البلد المستقل الذي يترعّ على ثروات أسطوريّة، قائلا: "أبكر كلّ صباح وأنتظر أمام الباب، من الخامسة إلى التاسعة فأعود فارغ اليدين، لا عملت ولا شبعْتُ نوما، ولا بعت سلة أو سلتين من كرموس النصرى، لعلّي ألتقط بعض المال لإعالة العائلة. يخرج سي رابع رئيس العمال يحدّق في المنتظرين الواقفين مطأطيّ الرؤوس عيونهم ذاوية لا تقدر على مواجهة نظرتة الثابتة الشزراء، كأننا نطلب لقمة خبز، وكأنّه يعرفنا جميعا، أو يعرف البعض منا على الأقلّ، الذين يقبلهم في العمل يشير بيده إلى ثلاثة أو أربعة من بين الأربعين الواقفين، ثم يقول مرفوع الرأس: لسنا في حاجة إلى عدد كبير من العمّال اليوم، عودوا يوما آخر، نحدّق فيه مستنجرين بأعيننا، يلفت وجهه إلى الدّاخل، يوصي الحارس بأن لا يسمح لأحدٍ بالدخول إلى الورشة، ثم يختفي"¹. مشهّد بئس في وطنٍ بئس، في عالمٍ منحطّ، قد غابت عنه قيم العدالة والحرية التي أسالت دماء غزيرة، وأفتت أعمارا طويلة، وقتلت أفرحا كثيرة دون جدوى. أمن أجل هذا الموقف الخاسر تستقلّ الشعوب، وتقدّم القرايين من

¹-ساري، على جبال الظهرة، ص 224.

أجسادها طعما لقوى الشر والظلم؟ أمن أجل هذا المشهد يُتِمَّت عائلاتٌ، وَغُيِبَتْ قري ومدشر تحت القصف الأطلسي؟ أمن أجل هذا البؤس طُرِدَتْ فرنسا من أرض المسلمين المتخلفين؟ الجزائر بلدٌ غنيٌّ، ولذلك يتزاحم عليه الغرب بالمناكب، ويقدم الكثير من الوعود من أجل منطقة نفوذ اقتصادي في بلدنا؛ ومع ذلك لا يجد أبناء هذه الأرض ما يحفظون به كرامتهم، ويُسَكِّتون به بطون أبنائهم. إنهم يترددون بالعشرات على الأسياح الجدد طمعا في الحصول على رغيف خبز، فيُردّون على أعقابهم، كما يُردّ الغريب عن الديار، بكلّ فظاظة وغلظة. ودون وعدٍ بالخلاص، أو أملٍ في الحياة. من الصعب جدا أن يُردّ طالبو العمل بشكل مهين كالذي تعرضه هذه السردية البليغة. فالمهانة وسوء الحال والموت في الروح، جعلهم يقفون مطأطيء الرؤوس، عيونهم ذائبة، ووجوههم قد جفّت من دمائها، وأصواتهم لم تعد قادرة على النطق. إنهم يستعطفون بعيونهم الزائغة ونظراتهم القانطة دون أن يحركوا ساكنا في السيد الذي يملك الحقّ في طردهم.

لقد عجز الاستقلال عن تحقيق الكرامة لأهله، واكتفى بخدمة الفئة الأقلية من أصحاب المال المتحالفين مع السلطة السياسية. والعمال الذين يشتغلون أجرا لدى أصحاب كبار المستثمرين، يتقاضون أجورا لا تكاد تكفي لسدّ الحاجيات الأكثر إلحاحا في الحياة. أمّا الأغلبية المسحوقة فإنّها محرومة من الحداثة والرفاهية التي لا يكفّ المسؤولون عن الوعد بها.

من مظاهر التغيّر التي أحدثها الاحتكاك بالاستعمار تغيّر القيم في المجتمع الجزائري؛ وهو تغيّرٌ أحدث شروخا وتصدّعات خطيرة في وحدة الأمة وهويّتها الجماعية. لقد حصل التغيّر بفعل المثاقفة مع الغرب، غير أنّها مثاقفة بالإكراه، ومن جانب واحد. "وإذا لم يتمّ حتّى ذلك الحين إدراك الاستعمار باعتباره هادما للمجتمعات غير الغربية، أو نازعا عنها ثقافتها، فلا يمكن فهمه باعتباره ممارسة عليا من قبل مجتمعٍ يعتبر نفسه آخر نتاج التاريخ الذي يرفع إلى مستواه المجتمعات التي مازالت متأخرة. وحتّى عام 1930 لم يُدرك الاستعمار إلّا بوصفه تغيّرا ثقافيا"¹، غير أنّه تغيّر ثقافيّ تحت الإكراه، ومن أجل تدمير وحدة الأمة الثقافية، وهو الممرّ الوحيد الذي يسمح للغرب بالعبور نحو السيطرة المطلقة على

¹ -جيرار لوكلاك، 1990، الانثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، الطبعة الثانية، المؤسسة

الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت-لبنان، ص72.

المستعمرات الخاضعة له. المجتمع الجزائري وبحكم طول المدّة التي عاشها تحت المسخ الثقافي الفرنسي عرف انحرافا خطيرا في أهمّ قيم المجتمع التي تميّز الهوية الوطنيّة للجزائريين. لقد فقد نظام الأسرة في المجتمع أهمّ ركائزه وأسس الروحيّة والقانونيّة. ولم يعد الشباب يولي لهذا النظام الاهتمام الذي يتناسب مع خطورته وحساسيّته. أحد شخصيات الرواية، المدعو: البشيرو هو شاب من القرية من أبناء الاستقلال، يتزوج بشكل منفرد ودون إحضار العائلة ولا أولياء الأمر. ويُعدّ ذلك خروجا على تقاليد الأسلاف الأكثر قداسة. "لم ينبس أحد بكلمة، تعجبوا من هذا الفعل الغريب! لم يفعلها شاب في هذه الجبال الغضاريّة ممن هجروا الأهل للعمل داخل الجزائر"¹. الزواج في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة هو فعلٌ متعدّد الأبعاد، إنّهُ فعلٌ ثقافي-اجتماعي، يحظى باحتفاء ديني في حياة العائلة، لا يضاهيه أيّ حدثٍ مثيلٍ. إنّهُ طقسٌ جماعي تُدعى إليه العشيرة كلّها، وتقام مظاهر البهجة ويتخلّى الناس عن المألوف، فتصبحُ كل مظاهر الفرح متاحة. إنّهُ حدثٌ يجمع كلّ أفراد العشيرة والقرية، لأنّ الزواج رابطة اجتماعيّة مقدّسة، تنضاف إلى الروابط الأخرى الموجودة أصلا من أجل وحدة الجماعة الثقافيّة والاجتماعيّة. فإذا تخلّى الشباب الجزائري عن هذه الروابط المقدّسة بفعل الحداثة الغربيّة، وانسياقا وراء قيم الآخر، فإنّ ذلك يُعدّ مؤشرا عن استلاب ثقافي بالغ الخطورة على وحدة الأمّة وسكينة. لقد قدّم الشاب الجزائري الذي تزوج على الطريفة الغربيّة تبريرات غير مفهومة في قومه؛ إنهم لم يتقبلوا سلوكه، واعتبروه خروجا عن الجماعة، وانتهاكا لمقدّساتها واختراقا لمحرماتها. لقد كان موقفهم إدانة له على كسر تقاليد الأمّة ورفضها لكلّ مبررات الانسلاخ عن قيم الذات. إنّ كثيرا من أركان الزواج التي يتخلّى عنها الشباب العربي بفعل التأثير بمظاهر الحياة الغربيّة هي من شروط صحّة عقد الزواج، وبغياب هذه الشروط تصبحُ الرابطة لاغية ومفتقرة للإقرار الشرعي.

الخاتمة:

رواية "على جبال الظهرة" رواية تاريخيّة، تعكس إحدى الصفحات المشرقة للثورة الجزائريّة في القرن العشرين. إنّها تقوم بتمثيل مشاهد ملحمة من المقاومة التي سجّلت حضورها في ولاية تيبازة، حيثُ توجد كثافة استيطانيّة أوروبيّة. فقد كان المستوطنون في

¹-على جبال الظهرة، ص 217.

تلك المنطقة خليطا هجيناً من إسبان وإيطاليين وفرنسيين ومهود. وكان العرب يسخرون لخدمة المستعمر.

من أكثر المشاهد التي أثّرت، مشهد عائلة جزائريّة تقيم في قرية مناصر، ضمّت شيخاً طاعناً في السن وزوجته وزوجة ابنه المعتقل لدى الجيش الفرنسي. كانت العائلة تملك حماراً واحداً، تتناوب عليه، في طريقها إلى زيارة الابن الأسير في يوم ممطر وشديد البرودة. مثّلت الرواية أيضاً مشهد الشباب الجزائري الذي احتُجز لدى الجيش الفرنسي في منطقة مناصر، وهو يقوم بالأشغال الشاقة لصالح الجيش. فقد كانت مشاهد مؤلمة تكشف عن الوحشيّة التي تميّز الاستعمار الفرنسي.

كما رأينا مشاهد بطوليّة لفرار المحتجزين الجزائريين من المعتقل بعد تمكّهم من قتل حراسهم، وكانت المشاهد بطوليّة إلى حدّ كبير.

إنّ أهمّ ما يستخلص من هذه السرديّة هو أنّ الاستعمار الفرنسي للجزائر يستند إلى مرجعيّة عنصريّة، لا إنسانيّة، تهدف إلى إتلاف كلّ ما يتعلّق بالذاكرة الوطنيّة، من خلال القوة العسكريّة المفرطة.

تمكّن الاستعمار الفرنسي من ضمان حضوره الثقافي في الجزائر من خلال وكلاء ثقافيين عمل على صناعتهم قبل تفكيك مستعمرته. وهم الآن يسهرون على تغريب المجتمع الجزائري من خلال الفرونكفونية.

المصادر:

1- محمد ساري، على جبال الظهيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988.

المراجع:

1- إدوارد سعيد، الثقافة والامبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، ط الأولى 2004.

2- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط السابعة 2005.

3- جورج قرم، تاريخ أوروبا وبناء أسطورة الغرب، ترجمة د. رلى ذبيان، مراجعة وتدقيق المؤلف، دار الفارابي، لبنان، ط الأولى 2011.

4- جون بول سارتر، مقدمة كتاب: معذبو الأرض، من تأليف فرانس فانون، ترجمة سامي الدروبي وجمال أتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط الثانية 2015.

5- جون بول سارتر، مقدمة كتاب (معذبو الأرض) لفرانس فانون،

6- جيرار لوكلارك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت-لبنان، ط الثانية 1990.

7

- فرانس فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، وجمال أتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، ط الثانية 2015.

9- إبراهيم بوخالفة، الكولونيالية وما بعدها، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد 13، العدد2، 2021/09/15.

